# التربية الإجتماعية فى القرآن الكريم

للأستاذ حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة ورئيس مجلس إدارة مسجد الإمام الحسين

## لماذا تخيرت الكلام فى موضوع التربية الاجتماعية

دعانى للكلام فى موضوع التربية الاجتماعية حديث جرى فيه على أثر سؤال وجهه إلى ابن أخى السيد/ماهر الملطاوى الطالب بكلية التجارة — وهو شاب ناشىء فى طاعة الله — وكنت وإياه على سفر بالسيارة فى رمضان الفائت ، ثم تتابع الحديث بينى وبين نخبة من أحبائى بمغاغة ( وهى بلدتنا الحبيبة ) فى الموضوع ذاته يوم العيد ولم أكن أقدر أن مجال القول فيه سيتسع إلى الأفق الذى وصل إليه مع جمع الأحباب . وقد أبدوا لى بعد الحديث رغبة ملحة فى تسجيله كتابة ليعم به النفع ، ولقد استجبت لرغبتهم الكريمة بهذا البحث .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنى من الداعين إلى التصوف . وقد عرفوه بأنه الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ، والخلق قائم على المعاملة ، معاملة الخالق ومعاملة المخلوقين . وبحث الموضوع يمكن إخوانى المؤمنين من التحلى بالأخلاق الإسلامية الصحيحة التى جلاها لهم القرآن الكريم ببيانه المعجز لفظا ومعنى كما بينتها السنة المحمدية المطهرة ، وبالله التوفيق .

## الايمان بالله واليوم الآخر

وأساس الصلاح فى المجتمع أن يؤمن الناس بإله واحد لا شريك له لا شىء قبله ولا شىء بعده سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، يرث الأرض ومن عليها ويبعثهم ليوم لا ريب فيه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

وهذا الإيمان يوجه الناس إلى إرضاء ربهم ، الذى يعلم سرهم وجهرهم ليحصلوا على جزاء سعيهم يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

وتربية الوجدان على مراقبة الله تعالى لا تقوم إلا عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن هنا كان للدين على أرواح أهل الإيمان سلطان ما بعده سلطان .

## الإيمان بالرسالة المحمدية

ولما كانت الرسالة المحمدية هى خاتمة الرسالات فقد جاءت مسك الختام فمن آمن بها فقد فاز فوزاً عظيما .

ومن فضل الله على عباده أن بقيت لهم معجزة القرآن على مر الأزمان متحدية الإنس والجن ومنادية بالإيمان وموجهة إلى كل فضيلة وناهية عن كل رذيلة فى إجمال رائع فصلته السنة المطهرة فى إحاطة تامة .

ولقد جعل الله فى رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، فمن تشبه به فى عبادته وأخلاقه فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

## نور الإسلام يشرق على ظلمات الحياة الاجتماعية

وقد جاء الإسلام بعد نحو من ستة قرون من رسالة المسيح عليه السلام فقابل فى المعمورة كلها فساداً شاملا فى أحوال الناس الاجتماعية — فمن عبادة أوثان ، إلى سفاح سافر ، إلى وأد بنات ، إلى حروب متلاحقة وأرحام متقاطعة ، إلى كبراء يملكون الرقاب ، إلى ملوك يتحكمون فى العباد ، إلى تصرفات يخبطون فيها خبط عشواء عن جهالة جهلاء وغى لا يعرف طريقاً للرشاد .

قابل نور الإسلام كل هذه الظلمات فبددها واحدة واحدة ، فدعا الناس أول مادعاهم إلى توحيد الله والاعتراف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تعبدهم بصلوات خمس تربط على هذا التوحيد وتذيقهم لذة مناجاته تعالى ، ثم إلى صيام يطهر نفوسهم ويربيها على الأمانة ويقوى إرادتهم فى اتصالها بالملأ الأعلى . ثم إلى زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ثم إلى حج يجمع رابطتهم على أخوة فى الله ، ثم إلى التحلى بمكارم الأخلاق المحمدية التى لا توازيها أخلاق ، فيرى بعضهم بعضاً إخوانا متحابين موحدين يؤمنون بإله واحد ويدينون بالكتاب والسنة ويصلون إلى قبلة

واحدة ويحجون إلى بيت واحد ، ولا يتولد عن هذه الظواهر إلا التماسك مهما اختلفت الأجناس وتباينت الألسن .

وما كادت الجزيرة العربية — وهى التى أشرق منها على العالم نور الاسلام — تستجيب لهذا الدين القيم حتى تحول أهلها من حياة الفوضى إلى الحياة المثلى ، وبفضل هذه الحياة المثلى ، تحولوا من رعاة غنم إلى ساسة أمم ودال لهم الشرق والغرب وتقوضت بجهادهم عروش كسرى وقيصر ولا يعرف العالم أمة صبغت بفتوحاتها الأمم الأخرى كما فعل مسلموا العرب ولا عرف التاريخ أمماً رحبت بدين يدين به الفاتحون كما رحب العجم بدين العرب ، وهذه والله بركات الإسلام الذى ارتضاه الله دينا لعباده وقال تعالى فى شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ولا عجب فقد عنى الإسلام بحياة الناس الاجتماعية عناية كبرى جعلت من المسلمين الأوائل طرازاً عجيبا حبب إلى غيرهم اعتناق دينهم والتخلق بأخلاقهم ، ذلك إجمال يقتضى المقام أن أتبعه بتفصيل يهدينا إن شاء الله إلى سواء السبيل .

### الاعتقاد بالإيمانيات الأخرى

ويلحق بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر الاعتقاد بسائر الإمانيات من الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب وكل ما نزل على حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وما نزل على أحبابنا المرسلين قبله صلوات الله عليهم أجمعين .

### التخلق بالأخلاق المحمدية يؤدى إلى صلاح المجتمع

فإذا وقر الإيمان فى القلوب فيجب أن يصحبه التطبيق العملى الدال على صحة الاعتقاد وإلا كان إيمانا بالتمنى وهيهات أن ينفع صاحبه وما عرفت البشرية فى تاريخها طريقا للتطبيق العملى أوضح ولا أيسر ولا أجدى مما أتانا حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد استقام صلى الله عليه وسلم كما أمره الله فنال من ربه أعظم شهاده « وإنك لعلى خق عظيم » ولم يؤمر وحده صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر الله بل خوطب هو وأمته بقوله تعالى :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

وها أنا أذكر إخوانى المؤمنين بالنهج الذى دعا إليه القرآن الكريم فى التربية الاجتماعية وكثيراً ما يمر الناس على الآيات التى وردت فيها ولا يعونها . ومن وعاها لا يطبقها عمليا ، وترك التطبيق العملى أو التقصير فى بعض نواحيه هو الذى أخرنا عن مستوى أسلافنا الصالحين — فالقرآن لم يتغير ولم يتبدل وإنما جاء التغير فى أحوال الناس لتفريطهم فى التزام الآداب الشرعية .

## التربية الاجتماعية التى دعا إليها الاسلام

ولما كان الإنسان مختلطا ببنى جنسه ولا يستطيع أن ينفك عنهم ، فلقد علمه الله فى كتابه كيف يعامل الناس بتربية إسلامية عالية لو حرص الناس على اتباعها لانتهت بهم إلى حياة اجتماعية مثلى وإليكم بعض نواحيها :

### معاملة الوالدين

ولما كان ألصق الناس بالإنسان والديه ، وهما صاحبا الفضل بعد الله عليه ، فقد علمه ربه كيف يعاملهما سلبا وإيجابا . فقال جل شأنه :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

ولما كانت للأم مشقات خاصة فى الحمل والرضاعة فقد ذكر الله الإنسان بها فقال :

« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون »

وأنت ترى من هذه الآيات وغيرها أنه تعالى أرشدك بعد توحيده إلى الناحية السلبية فى معاملة والديك بكف الأذى عنهما وإلى الناحية الإيجابية ببرهما والدعاء لهما بالرحمة ، ولا غرابة فقد رحماك وأنت ضعيف لا حول لك ولا طول ، فيجب عليك أن تقابل الجميل بالجميل .

ثم إن الله تعالى قد ضرب لك أروع الأمثال فيما قصه عليك فى القرآن الكريم من أنباء الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وإليكم بعضها :

فقد حكى عن سيدنا إبراهيم أنه قال لإبنه سيدنا اسماعيل عليهما السلام :

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ما ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ،

كما أبرز لك رقة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى مخاطبة أبيه وقد زجره بقوله :

« قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ، قال سلام عليك سأغفر لك ربى إنه كان بى حفيا »

وصور الله لك حنان سيدنا يوسف عليه السلام وهو يقول لإخوته :

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين »

كما صوره فى موقف حنان آخر حين رجعوا إليه :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وجاء فى وصف سيدنا عيسى عليه السلام :

« وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا »

وجاء فى وصف سيدنا يحيى عليه السلام :

« وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا »

ويبين لنا الله صورة عكسية فيما كان بين سيدنا نوح عليه السلام وابنه فقد قال له :

« ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

وما أعظم الفارق بين نهاية سيدنا اسماعيل عليه السلام الذى أطاع أباه فافتداه الله بذبح عظيم ، وبين نهاية ابن نوح الذى عصى أباه فكان من المغرقين .

ولا تظنوا يا إخوانى أن بر الوالدين يكون فى حياتهما بل يجب برهما بعد موتهما بالصورة التى بينها حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد جاء فى الصحاح عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى أن رجلا قال يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما قال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما » . أخرجه أبو داود .

ولما كان الزواج أساسا لعمران المجتمع فقد عنى القرآن الكريم بالحياة الزوجية أيما عناية وأرادها قائمة على المودة والرحمة والتراضى والتشاور والتعاون وإليكم التفصيل .

أما عن المودة والرحمة بين الزوجين فقد قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فالزوجية الصالحة يجب أن تقوم على المودة والرحمة وكل زواج يقوم على غيرهما لا يقوم على النهج الإسلامى الصحيح .

ثم إن الله تعالى وهو العليم بخلقه رسم للأزواج سبيل التصالح إن وقع بينهما شقاق فى قوله تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » .

وكذلك قال تعالى :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »

وإذا قال الله والصلح خير كان علينا أن نعمل جاهدين للحصول على هذا الخير ويؤخذ من مفهوم المخالفة أن الفرقة شر . وكيف لا تكون شرا وفيها شتات الأسرة وتقويض بنيانها .

البحث مستمر ؟